

التفسير بالمأثور فى العصر الحاضر ما له وما عليه

(بقلم : محمد عيسى أنصارى متعال)¹

مقدمة

توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يترك مالا ولا درهما، بل ترك لأمته القرآن الكريم وسنته المطهرة. وقد نزل القرآن بلغة عربية فى قوم اشتهروا بفصاحة اللسان وسليقتهم فى اللغة وصفوة النفوس مع حبهم إلقاء الأشعار فيما بينهم تفخرا بها. وكان الأحسن منها تعلق على جدران الكعبة إعجابا وإكراما لصاحبها.

إلى جانب أنهم اشتهروا بقوم أمي، أى لا يعرفون الكتابة ولا القراءة. بهذه الظروف أنهم اعتمدوا على الذكاء و قوة الحفظ. بل كانوا يعيرون الكتابة² لظنهم أن ذلك دليل على ضعف العقل وضعف الذاكرة. وقد تباروا فى إلقاء الأشعار تلقائيا وارتجالا.

وكان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يقول عن نفسه "أنا أفصح العرب بيد أى من قريش"³. وقد عُلم أن لغة قريش هى أفصح اللغات كلاما وأحسنها أسلوبا⁴، وبها نزل القرآن الكريم. وقد كان عثمان بن عفان رضى الله عنه الخليفة الثالث لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين عين زيدا بن ثابت - أحد كتّاب الوحي - رئيس اللجنة لجمع القرآن فى خلافته وأمرهم بالاعتماد على لغة قريش إذا وقع الاختلاف بين المسلمين فى القراءة والأداء. ووقع هذا الاختلاف بسبب كثرة دخول الأعاجم فى الإسلام ووسعة الدولة الإسلامية شرقا وغربا، فقال لهم "إذا وجدتم اختلافًا فى كلام العرب فردوه إلى لغة قريش لأنه إنما نزل بلغتهم." وقد تعصب المسلمون بما لديهم من القراءة التى وجدوها من أساتذتهم، بل قد بلغ هذا التعصب إلى حد حيث أنهم أخطأوا القراءة التى تخالف قراءتهم، مما يخشى أن يقع النزاع بين المسلمين بتكفير بعضهم بعضا بسبب اختلافهم فى هذه القراءة.

¹مدرس التفسير وأصوله بكلية أصول الدين بالجامعة

²شهاب، محمد قريش، *Membumikan al Qur'an*، مطبعة ميزان، ص: 23

³الشحود، على بن نايف، *المفصل فى أحكام الهجرة*، المكتبة الشاملة

⁴أنور جندى، *الفصحى لغة القرآن*، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، ص: 30

وقد تدرس أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن الكريم من صاحب الرسالة دراسة كاملة ، يعنى كانوا يتعلمون منه حرفا وكلمة وجملة ومعنى ظاهرا وباطنا . فسألوه ما لم يفهموا وسمعوا له وأطاعوه فيما بيّن وأمر حتى لا يفوتهم شئ منها⁵ . مع أنهم العرب الخالص باللفظ والمعنى.

يعرفون العربية ويعرفون أسباب نزول الآية وفيمن نزل وأين نزل وفي أى أمر نزل وكيف بيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الآية حلا للمشكلة فيهم. قال الله تعالى فى سورة النحل : 44

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) . ومن وظيفة الرسول

صلى الله عليه وسلم هو التبیین أو البيان لآيات القرآن الكريم للناس إلى جانب تبليغها إليهم.

ومن هنا نشأ التفسير بالمأثور، لأن منشأه من الحديث المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعتبر أقدم التفاسير من نوعه. وهو موجود منذ ابتداء نزول الوحي . وهذا التفسير له قيمته وخاصيته الذى لا ينازعه منازع. وظل هذا التفسير جاريا على الرواية بين المسلمين فى عهد الصحابة رضى الله عنهم ولم يكتب شيئا منه إلى أن جاء جمعه ليكون علما قائما بنفسه له أصوله وقواعده⁶.

وقد طغى الحديث فى أوائل تدوينه على التفسير - وبالخصوص التفسير بالمأثور- إذ جعل التفسير بابا من أبواب الحديث . لأن الذين جمعوا التفسير يومئذ هم من أئمة الحديث ، مثل : يزيد بن هارون السلمى المتوفى سنة 117 هـ وشعبة بن الحجاج المتوفى سنة 160 هـ ووكيع الجراح سنة 197 هـ وغيرهم . ثم بعد ذلك انفصل التفسير عن الحديث فأصبح علما قائما مستقلا بنفسه وتم ذلك على أيدي طائفة من العلماء ورتبوه على حسب ترتيب المصحف ، منهم ابن ماجة المتوفى سنة 273 هـ و ابن جرير الطبرى المتوفى سنة 310 هـ و أبو بكر بن المنذر النيسابورى المتوفى سنة 318 هـ⁷

ثم تتشعب اليوم المشاكل والقضايا بين الناس والأمة الإسلامية ، كالقضايا الفردية والاجتماعية والسياسية ، ومنها ماتكون محلية وما تكون قومية ودولية. كلها فى حاجة إلى الحل والخلص. والمسألة تتركز فى المسألتين الرئيسيتين ، هما :

⁵ ابن تيمية ، مقدمة فى أصول التفسير ، دار القآن الكريم ، الكويت ، ص : 36

⁶ أحمد خليل ، السيد، دراسات فى القرآن ، دار المعارف ، مصر ، ص : 111

⁷ الذهبى ، محمد حسين ، التفسير والمفسرون ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ص: 144

1- ما هو محل القوة للتفسير بالمأثور؟

2- هل للتفسير بالمأثور حل لمعالجة القضايا المعاصرة؟

مفهوم التفسير

للعلماء آراء فى تعريف التفسير. والذى اتفق عليه العلماء فى مفهومه اللغوى فقط، حيث قالوا إنه الكشف والبيان. أى يراد به أنه يكشف ماذا احتوته الآية أى على المعنى الآخر، هو يكشف المعنى الذى أتت به الآية من قريب أو من بعيد مما لا يخطر بالبال، وكما أنه يشرح الكلمة أو الآية كى تستبين معانيها ومراميها. لذا سيعرض فى هذا البحث بعض آرائهم:

1- عرفه أبو حيان: "علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التى تحمل عليها حالة التركيب وتتمتات لذلك."⁸

هذا التعريف يشمل كثيرا من العلوم كأصول يستعملها المفسر عند عملية التفسير للحصول على المعنى المراد من آيات القرآن. ويدخل فيها علم القراءة وعلم اللغة والنحو والصرف والبيان والبديع إلى غير ذلك من العلوم التى استعملت لبيان مراد الآية كالناسخ و المنسوخ وسبب النزول والحقيقة والمجاز.⁹

2- عرفه الزركشى: "علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم و بيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه"¹⁰

ولو كان فى ظاهر التعريفين خلاف، لكن بعد إنعام النظر، كان الخلاف فيهما خلاف فى الأسلوب فقط لا الخلاف فى المضمون.

إلى غير ذلك من التعارف الأخرى. جميعها يتفق بعضها مع البعض فى المراد من التفسير وهر علم يبحث عن مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية.

حاجة الناس إلى التفسير

كما ذكر فى البيان السابق، كان أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم سألوه عنما لم يفهموا من آيات القرآن. وإذا أتى بها سمعوا له وأطاعوه وفعلوا ما فيها. وهم فى فصاحتهم

⁸قطان، مناع خليل، مباحث فى علوم القرآن، مكتبة وهبة، القاهرة، ص: 289

⁹انظر إلى أبى حيان، البحر المحيط، فى الذهبى، التفسير والمفسرون، مكتبة الوهبة، القاهرة، ص: 16

¹⁰قطان، المرجع السابق، ص: 289

وقدرتهم على فهم اللغة العربية مع مشاهدتهم نزول الوحي، وهم لا يزالون في حاجة إلى بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم لآية من آيات القرآن. فما بال الناس في يومهم الحاضر، الذي قد قلّ فيهم الذوق العربى لكثرة اتصالاتهم بغيرهم ، ولا سيما الأعاجم منهم. ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر يوحى إليه. وقد وصفه الله بأنه ((وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ))¹¹. فضلا أن يكون القرآن هدى للناس و بينات من الهدى والفرقان من حيث لا يتحدد بزمان ولا مكان. القرآن نزل بلغة عربية فصحة لا اعوجاج فيها. ومن آيات القرآن ما تكون من الحقيقة ومن المجاز ، وما تكون من الإطناب ومن الإيجاز وقد يظهر معناها عند شخص ولا يظهر ذلك على غيره. وقد تكون مجملا ومبهما حيث لا يتدخل العقل فيهما إلا من الشرع. والشرع إما أن يكون من القرآن نفسه وإما من السنة الصحيحة. فرسول الله صلوات الله وسلامه عليه له السلطة الكاملة في تفسير القرآن لأنه من وظيفته الأسمى. قال الله تعالى ((وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ التَّكْوِينَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ))¹² بالاعتماد على هذه الآية ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "إنما الرسول بعث لأجله"¹³

فمثلا في قوله تعالى : ((الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ))¹⁴ كان الصحابة - رضوان الله عليهم - يتحرّجون عليها ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا يا رسول الله ... وأينا لم يظلم نفسه ؟ قال : >> إنه ليس الذين تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح : إن الشرك لظلم عظيم ؟ إنما هو الشرك << أخرجه أحمد والشيخان وغيرهم عن ابن مسعود.

وكذلك ما بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أخرجه أحمد والترمذى وغيرهما عن عدى بن حبان، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم >> إن المغضوب عليهم هم اليهود ، وإن الضالين هم النصارى << هذا، وغيرها كثيرة لا تحصى كما أخبر الله جل جلاله عنه بذلك في كتابه حيث قال: ((وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ التَّكْوِينَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ))¹⁵. أى أن بيان الرسول صلى الله عليه وسلم لآية من آيات القرآن من وظيفته .

¹¹ سورة النجم: 2-4

¹² سورة النحل : 44

¹³ ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير ، تحقيق عدنان زرزور ، دار القرآن الكريم ، كزيت ، 1971 ، ص:35

¹⁴ سورة الأنعام: 82

¹⁵ سورة النحل : 44

ما يؤخذ للتفسير بالمأثور

هو عبارة عن تفسير القرآن بالقرآن وتفسير القرآن بما جاء عن الصحابة رضوان الله عليهم وتفسير القرآن بقول التابعين. ولا شك أن للصحابة فضلا كبيرا في التفسير بالمأثور . وذلك للأسباب التي ليس لغيرهم شأن مثلهم . وذلك أنهم مفضلون بأمور:

1- لقاءهم بالنبي صلى الله عليه و السلم ما لم يحظّ غيرهم من المسلمين فبارك الله فيهم هذا اللقاء
2- إنهم تلاميذ النبي صلى الله عليه وسلم بالتلقى ، حيث أنهم ينظرون إليه وجها لوجه بدون ستر كما أنهم يسمع كلامه بدون واسطة.

3- إنهم ممن اجتمع عليهم أهل العلم بالعدول "الصحابة كلهم عدول" بتعديل الله لهم وثنائه عليهم وثناء رسول الله صلى الله عليهم وسلم ، فليسوا بحاجة إلى تعديل أحد من الخلق¹⁶. فمن تعديل الله لهم وثنائه لهم قول الله سبحانه عز وجل وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ¹⁷ ومن الأحاديث النبوية ما رواه الإمام البخارى فى صحيحه بشرح ابن حجر العسقلانى (خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ...)¹⁸

4- لا سبيل فيه إلى تحديد إرادة الله فى الآيات من الآيات إلا بالرواية عن صاحب الرسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وهذه الرواية إنما تأتى من الصحابة رضى الله عنهم.

ولهذا تخرج أبو بكر الصديق من التفسير غير المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روي عنه إذ قال : " أى أرض تقلنى وأى سماء تظلنى إذ قلت فى القرآن برأىي¹⁹.

تلك هى الظروف والأوضاع التي تحيط الصحابة ما لم تُحط به غيرهم . والتفسير عن الصحابة يحظى بالقبول بدون النزاع ما كان الأمر يتعلق بأسباب النزول وما ليس للرأى فيه مجال. فالتفسير عنهم حكم عليه بالمرفوع مادام اسناده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووجوب أخذه اتفاقا ولا يجوز رده بأية حال. وإن لم يسند إليه فحكم عليه بالموقوف. والذي يجب الإلمام به أن الصحابة

¹⁶ أحمد الدليمى ، محمود عيدان، الصحابة ومكانتهم عند المسلمين، المكتبة الشاملة

¹⁷ سورة الواقعة : 10 - 12

¹⁸ ابن حجر العسقلانى، الفتح البارى ، دار المعرفة - بيروت ، المكتبة الشاملة.

¹⁹ أحمد خليل ، السيد ، المرجع السابق ، ص : 111

متفاوتون في نيل ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم باختلاف الأحوال الفردية والفرص المعدة لهم والاستعدادات النفسية إياهم.

أما التابعون ، فهم ليسوا على هذا الحظ ، إلا أنهم تلاميذ الصحابة في زمان وظروف غير ظروفهم. وقد اختلفوا معهم في المكان كما اختلفوا في الأقوام والعادات والتقاليد التي عاشوا فيها. وقد اجتهدوا في أمر ما لم يجتهدوا فيه من ذي القبل . والمجتهد قد أصاب وقد أخطأ كما حدث فينا. وقد نقل عن أبي حنيفة أنه قال: " ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلى الرأس والعين ، وما جاء عن الصحابة تخيرنا ، وما جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال" ²⁰ أى بمعنى أن التفسير الذى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم حكم عليه بالمرفوع ووجوب قبوله ولا يجوز أبدا تركه أيا كان شأنه. ثم ما جاء عن الصحابة رضوان الله عليهم تخيرنا. إن كان الأمر متصلا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فحكمه حكم المرفوع ووجوب قبوله أيضا ، كما أنه ما يتعلق بأسباب النزول وما ليس للرأى فيه مجال. ولكن ما جاء عن التابعين فقبوله ليس بواجب ، لأنهم وإن كانوا رجالا فنحن رجال مثلهم ، فنجتهد كما اجتهدوا ، فنصيب كما أصابوا أو نخطئ كما أخطأوا .

وقد بالغ بعض المفسرين في وجوب الأخذ بالتفسير عن التابعين كمجاهد وعكرمة وعطاء وغيرهم. لأنهم تلقوه عن الصحابة . وفى هذا الرأى قال شيخ الإسلام ابن التيمية إن أقوال التابعين لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم . أما إذا أجمعوا على شئ فلا يرتاب في كونه حجة . فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا من بعدهم ²¹

وقد تحرّج السلف أن يقوم بالتفسير غير المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة وعن الذين أخذوا عنهم. لعلمهم أن الرسول قد علمهم كل ما فى القرآن ولا يبقى فيه من شئ. وهم يتعلمون من النبي ما فيها من العلم والعمل معا ²² . وذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بالتفسير جميع ما فى القرآن ولاعتقادهم أيضا أنه أعرف الناس بمعانى الوحي الذى يتلقاه عن ربه . فالصحابه أخذوه منه بأجمعه ، فلم يبق إذن من الآيات القرآنية إلا درسوها من النبي صلوات الله وسلامه عليه بالتلقى ، ²³ ثم كان الصحابة رضى الله عنهم أقاموا مدارس العلم يتعلم منهم التابعون اتباعا. فإذا كان الأمر فى مثل هذا الشأن والقرآن صالح فى كل مكان وزمان والنبي صلى الله عليه وسلم

²⁰ الذهبي ، محمد حسين ، التفسير والمفسرون ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، 1985 ، ص : 139

²¹ ابن التيمية ، المرجع السابق ، ص : 105

²² ابن التيمية ، المرجع السابق ، ص : 36

²³ ابن التيمية ، المرجع السابق ، ص : 36

فسر له كل شئ بالتلقى ثم أخذ منه الصحابة بالتلقى أيضا وتابعهم بإحسان التابعون بعدهم مثله ، فهل بعد ذلك لا يزال المسلمون فى حاجة إلى تفسير القرآن غير المأثور ؟ قال الله تعالى : (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِّلْمُسْلِمِينَ) ²⁴ وأيضا قوله تعالى:(وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ لِيُبَيِّنَ لِّلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ لَعَلَّ هُمْ يَتَفَكَّرُونَ) ²⁵

وبعد ملاحظات ما أُورد فيما مضى ، فبالإمكان تحديد كل ما فى الأبحاث ، كى يوضع كل مسألة فى محلها دون المبالغات. فقد جعل الله سبحانه وتعالى الأمة الإسلامية أمة وسطا مبصرة لكل القضايا حلّت بهم و وضع لهم الشريعة الشاملة ، حيث وضع لها أصولا وفروعا . للأصول مثابها كما للفروع مشربها، حتى يجرى البحث لكل منهما مجراها اللائق ولايطغى أحد هما على الآخر عوجا. ومن الأصول تتفرع الفروع ، ومن الفروع مردّها الأصول . على المسلم أن يعرف معرفة دقيقة لتمييز ما للأصول مبحثها وما يتفرع منها، وللفروع مبحثها وما يتولّد منها. وفى الإسلام ما يعرف بالعميقة والشريعة . ولكل منهما أصول وفروع.

ما امتاز به التفسير بالمأثور

لقد مرّ التفسير بالمأثور بقرون على الأمة الإسلامية . استفادوا وانتفعوا به وساروا معه على معاشتهم فى العبادات والمعاملات . ومما يلى ما امتاز به التفسير بالمأثور مدى القرون:
أولا : التفسير بالمأثور يكون أكثر تأكيدا للقبول وأكثر يقينا للعمل به لأنه من قبيل المرفوع. فالرفوع ، أنه جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم . وهو أحق بالتفسير من غيره. كما سبق له البيان .

ثانيا : الاختلاف فيه قليل جدا ، وذلك الاختلاف إنما اختلاف التنوع ، لا اختلاف التضاد

ثالثا : أسهل للفهم ، لاكتفائه بالمعنى الإجمالى.

ما يؤخذ على التفسير بالمأثور

وبعد عرض ما يؤخذ للتفسير بالمأثور فيما سبق، فبذت الآن المسألة الأخرى . وهى أن القضايا فى العالم الإسلامي و فى الدول المجاورة والأجنبية تتجدد وتتطور بتقدّم الانكشافات

²⁴ سورة النحل : 89

²⁵ سورة النحل : 44

والاختراعات فى العلوم والتقنية ما لابد منها أن تحدث. من المعلوم أن القرآن الذى هو المصدر الأول فى الإسلام ودائما يكون هدى للناس فى كل مكان وزمان . فالتفسير بالمأثور أتى فى زمان غابر أى فى صدر الإسلام . فهل من إمكانية أن يكون لها حلا مجديا فى هذا العصر الحىث ؟ هذا من جانب، وفى جانب آخر أنه قد أصابت بالتفسير بالمأثور كثرة الأوضاع فىه التى وضعها الوضع من كل جانب.

هذه الأحوال التى تحيط بالأمة الإسلامية بعد أن اتسعت الولاية الإسلامية شرقا وغربا. وحاولت هذه الأمة أن تجد لها حلا . فطلبت فى القرآن والسنة المطهرة . وحددت لها ما للأصول وما للفروع. وهى من الأسباب لظهور التفسير بالرأى ، ثم التفسير العلمى والتفسير العصرى !

فالتفسير بالرأى عبارة عن تفسير القرآن بالاجتهاد أى بالعقل بعد استكماله شروط المفسرين . وإذا قارننا بينه وبين التفسير بالمأثور، فالتفسير بالمأثور يعتمد على صحة الروايات والتلقى . وهذا الذى يثار العلماء على التفسير بالرأى . فقد ضبّطوا شروطا لازمة للمفسر ، حتى يبلغ خمسة عشر شرطا²⁶.

ومن العلوم التى احتواها القرآن العلوم الكونية والعلوم الاجتماعية ، فمن الواجب على المفسر أن يلمّ بهذين النوعين من العلوم قليلا أو كثيرا. وقد نقل عن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده كما ساقه محمد رشيد رضا فى مقدمة تيسيره : " أنا لا أعقل كيف يمكن لأحد أن يفسر قوله تعالى *كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ* ²⁷ الآية ، وهو لا يعلم أحوال البشر ، وكيف اتحدوا ، وكيف تفرقوا ، وما معنى تلك الوحدة التى كانوا عليها ، وهل كانت نافعة أو ضارة ، وماذا كان من آثار بعثة النبيين فيهم" ²⁸

هذا، بالنسبة للعلوم الاجتماعية أو العلوم البشرية ، وفى نفس الحال ما يتعلق بالعلوم الكونية التى كثيرا ما اتصل بالإنسان . وقد عدّها الشيخ طنطوى جوهرى²⁹ بأن عددها فى القرآن الكريم أكثر من 750 آية (سبعمائة وخمسين آية) ، بل هى كانت أكثر من تعداد آيات الأحكام التى

²⁶ انظر إلى الذهبى إذا شئت ، المرجع السابق، ص : 255

²⁷ سورة البقرة : 213

²⁸ الذهبى ، المرجع السابق : 259 .

²⁹ صاحب كتاب التفسير العلمى الجواهر فى تفسير القرآن الكريم ، الشهير بالتفسير الجواهر، ولد سنة 1880 توفى سنة 1940 بالقاهرة

لا تتاهز عن 150 آية (مائة وخمسين آية) فقط.³⁰ هذا ، وإن دل على شئ فإنما يدل على أن القرآن ملئ بالآيات الكونية التي تحكى للإنسان ما حدث فيه من القوانين و النظم الجارية فى الأجرام السماويات و الأرض، مثل قوله تعالى: **أَبْجَلًا يَنْظُرُونَ إِلَىٰ آلِ الْإِبْرَةِ كَيْفَ خُلِقَتْ. وَإِلَىٰ السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ. وَإِلَىٰ الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ . وَإِلَىٰ الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ** .³¹ فهذه الآيات الأربعة ومثلها كثيرة، لا ريب فيها أنها تأمر الإنسان بأن يخوض فى الكلام و البحث عن عالم الطبيعة كما أن الله سخر له ما فى السموات و ما فى الأرض. و ذلك كله يحتاج إلى أعمال الفكر و العقل المستمد من هدى القرآن وبالإشارات العلمية فيه. ثم إذا كانت هذه الأمور تقام عليها المباحثات فى التفسير بالمأثور ليكون حلاً أو كاشفا لها ، فهل يوجد فيه من سبيل ؟ هذا ما يؤخذ على التفسير بالمأثور .

وبعد هذه المباحثات ، هل يمكن القول إن التفسير بالمأثور قد لآتمس فى بعض نواحي حياة الإنسان ؟. أى بالمعنى الأدق أن التفسير بالمأثور فى بعض الأمور لا يستطيع مسايرة تطور حياة الإنسان فى زمان عصري. هذا ، وإن صح هذا القول ، فإنه إنما يرجع الأمر إلى السببين ، وهما:

1- تتجدد المكشوفات و التغييرات الاجتماعية بين ظهرانى بنى الإنسان مع تطورها السريعة ما لم تحدث من ذى القبل (زمان نزول الوحي).

2- كثرة الأنشطة والاتصالات بين المسلمين والناس حولهم مما يحدث الاختراعات الجديدة .

ثم يجب الحذر كل الحذر على أن قوة التفسير بالمأثور تخضع بعامة من الأسانيد والمتون . ومما يؤخذ عليه أنه قد تطرقت إليه الروايات التى لا تعرف صحة أسانيدها كما اضطربت فيها المتون. هذا من جانب، وقد تسربت أيضا فيه المرويات عن أهل الكتاب . وقد ترخص بعض المفسرين فيه ما يؤدى إلى أن هاجم كثير أئمة الحديث هذا اللون من التفسير. فقال أحمد بن حنبل: "ثلاثة ليس لها أصل التفسير والملاحم والمراحم"³²

³⁰ الذهبي ، المرجع السابق ، ص : 483

³¹ سورة الغاشية : 17-20

³² أحمد خليل ، السيد ، المرجع السابق ، ص : 112

وأما الأسباب التي تعود إلى اتصال المسلمين بالكتب السابقة و شروحيها و روايات بعض الأخبار و الأحداث عنها، ثم اتساع هذه الروايات و تنوعها، التي تعرف بالإسرائيليات هي كما قاله ابن خلدون في المقدمة ، الذي نقله السيد أحمد خليل في كتابه دراسات في القرآن :

إن العرب كانت أمة أمية وكانت لا تعرف من أخبار الأمم السابقة إلا اليسير . وكان يساكنهم أهل الكتاب فيسعون منهم أخبار الخليقة ونشأتها فشاقهم ذلك كله إلى سماعه ، وروايته وبخاصة ما يروى منه عن نشأة الخليقة ، ثم يذكر أن وهب بن منبه وعبد الله بن سلام وكعب الأحبار وسواهم كانوا من الرواة الأولين لهذه الأخبار وهم من طائفة الأبناء ، أي أبناء اليهود الذين كانوا يسكنون بلاد اليمن ثم دخلوا في الإسلام وسموا بهذا الاسم .

ويظهر مما يرويه البخاري أن اليهودية كانت شائعة في جزيرة العرب . وكانت من بين اليهود قصاص ومذكرون يجتعون في هذه المدرسات فيقصون على ذويهم هذا القصاص ويبالغون فيه ... والمعروف أن التوراة في أسفارها وبخاصة سفر التكوين تميل إلى الإطناف والإفاضة ورواية كل ما يتعلق بالخليقة ، وأن القرآن الكريم أجمل القول في هذه النشأة فاتجه المفسرون إلى التوراة و شروحيها فنقلوا عنها ...³³

إن اليهود كانوا يسكنون العرب ويتعاملون معهم في كثير من الأعمال. وهم يقصون الأخبار المضمونة في كتبهم بين ظهرائي المسلمين وبالخصوص ما يتعلق بأخبار الخليقة التي أجملها القرآن، وفي نفس الوقت المسلمون يغربون في معرفتها. وأخبار هذه الخليقة موجودة بالإفاضة في سفر التكوين من التوراة فينقلون عنها المفسرون في كتب تفسيرهم. وجاء من بعدهم ينقلونها ظناً أنها من الحقيقة.

ولذلك على المسلمين أن يتحذروا ويتحروا الصحيح من السقيم ما حصلوا عليه من قراءة كتب التفسير بالمأثور اجتناباً من أن يقعوا في الفهم الخاطيء لاتحمد عقباه.

التلخيص

وبعد عرض هذا البحث المتواضع في التفسير بالمأثور فالتلخيص منها ما يلي :

1- محل القوة للتفسير بالمأثور هو صحة الروايات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الحكم المرفوع يجب قبوله ولا يجوز التعديل عنه. وأما إذا كانت عن الصحابة فلزوم القبول منه أقرب إلى رده . لأنه ممن اتصف بالعدول وبامتيازات الصحبة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

